العودة المتخيلة ـ ضفاف المستقبل

عناية بشناق*

خواطر من الوطن**

عندما تقدم بها العمر، كانت عمتي أمينة تروي لنا بكلمات مجبولة بالحنين ذكريات عن طفولتها ونشأتها في قيصرية، على ساحل فلسطين؛ كانت تستيقظ على صوت أجراس الجِمال في قوافل الإبل السائرة متمايلة تحت أحمال البطيخ وغيره من الغلال في طريقها إلى المرفأ، وفي الليل تسمع صوت أمواج البحر تتلاطم على جدار مجاور.

في زيارتي إلى قيصرية بعد سنة ١٩٦٧، عندما كان لا يزال ممكناً العبور من الضفة الغربية إلى إسرائيل، رأيت بعض ما تبقّى ممّا وصفته عمتي. فما كان بلدة صغيرة من عشرات المنازل التي بناها البوشناق وسط الآثار القديمة المهجورة، باتت اليوم مهدّمة في معظمها، ونقبها علماء آثار أميركيون وإسرائيليون. لقد أصبح الموقع وجهة سياحية شهيرة. والبوشناق، كما اعتاد الناس تسميتهم، هم أفراد عائلات بأكملها غادرت البوسنة والهرسك بعد استيلاء الجيش النمساوي ـ المجري عليها في سنة ١٨٧٨، مفضّلة العيش تحت الحكم الإسلامي للسلطنة العثمانية. أمّا المسجد البوسني الذي تعلم فيه الأولاد والبنات، كل في صف منفصل طبعاً، القرآن على يد أحد شيوخ الأزهر، فصمد وتحول اليوم إلى حانة، كما رُممت القناطر الرومانية التي بناها الملك هيرودس، والتي استُخدمت أقواسها في السابق مستودعات: إنها آثار رائعة شاهدة على الهندسة المعمارية القديمة. ما لم يتغير هو البحر حيث تعلمت عماتي السباحة في قمصان النوم الطويلة، مستعينات بفاكهة قرع مجففة كن يربطنها على أذرعهن لمساعدتهن على العوم.

الآن، وبعد أن أصبحتُ في عمر عمتي آنذاك، تتجه ذكرياتي نحو الداخل، نحو العمود الفقري لفلسطين والطريق القديمة من القدس إلى نابلس وما بعدها. هذه الطريق التي تتعرج عبر وادي الحرامية شديدة الانحدار، وتتجه شمالاً عبر طريق ملتوية وتلال لطيفة تُطل مع تعاقب المشاهد الخلابة الواحد تلو الآخر عند كل منعطف. إنها مناظر طبيعية

---

* كاتبة فلسطينية.

** ترجمة: صفاء كنج.

يسهل الوصول إليها، وتجعل المرء توّاقاً إلى استكشافها مشياً على الأقدام بدلاً من السيارة. وبالمثل، فإن الحقول المزروعة ومزارع الخضروات التي تملأ الوديان، مساحتها متواضعة ويمكن لعائلة أن تديرها بالاستعانة ببعض العمال. وعلى سفوح التلال الصخرية، تنتشر مدرجات تحتجز أثلاماً ضيقة من التربة تصوّنها جدران حجرية بنتها أيادي أجيال غابرة، بحيث تنتشر في كل مكان وتثمر أشجار الزيتون، رمز فلسطين. وعلى الطريق تبدو القرى بمنازلها ذات السقوف المسطحة مثل أكوام من السكر الأبيض تسمّرها على الأرض مآذنها، وفق تعبير قرأته في مكان ما. وغالباً ما حملت هذه القرى اسم ثمار تلك الأرض: فطولكرم تذكّر بكروم العنب، والجاروشية بالقمح المجروش، وعصيرة بمعاصر الزيت. لقد فلح الفلسطينيون التربة وزرعوها على امتداد قرون، فنشأوا فلاحين ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بالأرض، وتشرّبت دماؤهم غبارها المائل إلى الحمرة. وعلى الرغم من أن الراحل راشد حسين الذي قضى حياته ينظم الكلمات في قصائد رنانة، لم يكن مزارعاً، فإنه لم يتمكن من التخلي عن إرثه الفلاحي حتى عندما كان على بعد آلاف الأميال من قريته مُصمص. لقد أثار دهشة مالك منزله في نيويورك عندما رأى ثمار الفاصولياء والخيار والباذنجان تطل برؤوسها بين الأعشاب الكثيفة المشذبة بعناية في فناء المبنى الذي عاش فيه.

لا تنبع محبتي لهذه الطريق فقط ممّا تتركه في نفسي من حنين لفلسطين، بل أيضاً لأنها الطريق التي كانت تأخذنا في أيام المناسبات والأعياد من القدس، مسقط رأسي ومسكني حتى سنة ١٩٤٨، إلى حيث التمّ معظم أقاربنا، وحيث رددت ضحكات الكبار حول الطاولات العامرة بأطيب المأكولات ضجيجَ الأطفال اللاهين باللعب.

اليوم، وعلى طول هذه الطريق، أحرص على ألاّ أرفع عينيّ إلى رؤوس التلال حيث تجثم المستعمرات الإسرائيلية المقامة على أرض مسروقة خلف أسيجة كهربائية وأنوار كشافة تراقب الطرق الواقعة أسفلها. بتنا نأتي اليوم لحضور المناسبات العائلية بالطائرة من بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والولايات المتحدة حيث أخذنا الشتات.

لكن ماذا عن الأعداد التي لا تُحصى من اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون في الجانب الآخر من الحدود في الأردن وسورية ولبنان وأماكن أُخرى ممّن لا يستطيعون دخول فلسطين؟ إنهم ينتظرون منذ سبعين عاماً في المخيمات حيث يعتاشون على الحصص التي توزعها عليهم وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا)، وهم في حالة "الموقت الدائم" مثل الاسم الذي أطلقه المهندسان المعماريان ساندي هلال وأليساندرو بيتي على معرضهما بمناسبة ذكرى النكبة هذه السنة [٢٠١٨]. إنهم ينتظرون العودة إلى ديارهم، وما زالوا يحتفظون بمفاتيح منازلهم القديمة. وفي مخيم في الأردن، تحتفظ لاجئة بحفنة من تربة حقلها المفقود تحت وسادتها كي تتمكن من النوم على جزء من أرضها. لكن إذا كانت ديارهم في واحدة بين ٤٠٠ قرية محاها الصهيونيون، فإنها أصبحت أثراً بعد عين، وإذا كانت منازلهم لا تزال قائمة، فإن اليهود الذين جاؤوا إلى إسرائيل من أوروبا وروسيا وأميركا، احتلوها وسكنوا فيها.

في المستقبل الحامل بشرى التحرير، أتخيل في البدء صور اللاجئين العائدين، وهم يعيشون على رؤوس التلال في منازل غادرها المستوطنون الإسرائيليون الذين يبلغ عددهم الآن قرابة ٦٠٠,٠٠٠. وفي هذه الحال، فإن المباني ستُترك سليمة ولن يتم تفجيرها كما حدث مع المستعمرات التي أُخليت في غزة. لقد أثار الفلسطينيون الدهشة كونهم بنّائين "يبنون ويعيدون البناء"، وسرعان ما ستصبح "المستعمرات" النموذجية المبنية على النمط الأوروبي، بلدات ذات مآذن وأبراج كنائس وأسماء عربية. وستحجب المنازل الجديدة المبنية من الحجر الجيري المنازل الإسرائيلية عن الأنظار. وفي نهاية المطاف سيُمحى الوجود الإسرائيلي غير القانوني ـ ليس بالهدم والدمار، وإنما بالبناء والزرع.

يطيب لي أن أتصور أن اللاجئين العائدين الذين عاشوا في مخيمات منفصلة عن المجتمعات المحيطة بهم، واضطروا إلى إدارة شؤونهم الخاصة داخل المخيمات، سيضخّون طاقة مختلفة في الأراضي التي احتلتها إسرائيل، والتي أشرفت عليها السلطة الفلسطينية. ستعود موجة من رواد المشاريع الفلسطينيين المقيمين في الخارج لتطوير وطنهم القديم على أمل بأن يكون حظهم أفضل من أولئك الذين عادوا بعد أوسلو. كان على الفلسطينيين أن يكونوا أشداء في مواجهة ظروفهم: تحمّل حياة اللجوء ومقاومة الاحتلال العسكري وشق طريقهم كمهاجرين في بلاد جديدة. إن تحمّل صنوف الشدائد الثلاث معاً يمكن أن يبشّر بمستقبل واعد لفلسطين عندما تتحرر. إن شاء الله. ■

يصدر قريباً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الاحتجاج الشعبي في فلسطين
المستقبل المجهول للمقاومة غير المسلحة

مروان دوريش و أندرو ريغبي